العقل والواقع في فكر حسن حنفي
-الفلسفة بالفعل-

عمر الزاوي(*)

" كل الأشياء المعمرة، كل الأشياء التي تعيش زمنا طويلا يغطيها العقل شيئا فشيئا إلى درجة أنها تنغمس فيه كليا فتبدوا وكأنها عقلانية خالصة. ويصبح أصلها أو منشؤها اللاعقلاني شيئا لا يمكن تصوره. ألا يبدوا الكشف عن التاريخ الدقيق لأصل ما، وبشكل شبه دائم تقريبا، إما أنه غير قابل للتصديق وإما أنه تدنيس للمقدسات؟ أليس المؤرخ الجيد، دائما في حالة صراع مع وسطه والظروف المحيطة؟"

(فريدريك نيتشه)

آثرت تدشين القول حول خطاب حسن حنفي الفكري عبر هذه العتبة النيتشوية التي توجز وتلخص بشكل مركب ومركز البناء النظري والفكري السياسي لفلسفة الدكتور حسن حنفي وذلك في أبعادها وأسسها الثلاثة وهي:

أ. الموقف من التراث العربي الإسلامي.

ب. الموقف من التراث الغربي.

ج. الموقف من الواقع في أبعاده الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

(*).أستاذ محاضر، قسم الفلسفة، جامعة وهران.

وهي المواقف نفسها التي تجعل فكر حسن حنفي يصارع ويجتهد على ثلاث جبهات في شكل نسقي متكامل منسجم ومتناغم، وهي أيضا ما يجعل فكره يرقى إلى البناء النسقي بالمعنى الفلسفي للكلمة، ذلك أن الفلسفة في حالة حسن حنفي تكرس ذاتها وتحقق وجودها بالفعل عبر ترتيب وتقسيم إجرائي جرت العادة على اعتماده كلما تعلق الأمر بالحديث عن الفلسفة إلى ثلاثة مباحث هي: المعرفة، الوجود والقيم.

وهذا التقسيم كما نعلم لا ينال من وحدة الفلسفة ونسقيتها بل يؤخذ به لضرورات منهجية وإجرائية.

وإذا جاز لنا أن نعتمد هذا الإجراء بالنسبة لفكر حسن حنفي، يمكن القول أن "الموقف الأول هو الذي يجعل الرجل يبدوا مفكرا إسلاميا مجددا، والثاني يجعله يبدوا مفكرا غربيا، والثالث يجعله يبدوا مفكرا اجتماعيا سياسيا"[1].

ولكن ما يبدوا أنه مواقف هو في واقع الأمر اختزال لمشروع فكري فلسفي متكامل يتكون من ثلاثة أقسام:

أ. نقد التراث العربي الإسلامي وإعادة قراءته وبنائه طبقا لمتطلبات العصر.

ب. نقد التراث الغربي وإعادة قراءته، من أجل تحديد علاقة سليمة وصحيحة بالغرب، ورده إلى حدوده الطبيعية وتحجيمه حتى تتخلص الحضارات الأوربية من آثاره ونقل المعارف منه إلى الإبداع الذاتي.

---

(1). "كبوة الإصلاح" مقابلة مع الأستاذ حسن حنفي أجراها معه عبدالصمد بلكبير في صحيفة "أنوال الثقافي" المغربية، عدد ١٢١، يوم السبت ١٦ يونيو ١٩٨٤

ج. نقد الواقع وتأصيل الحاضر، ودفعه نحو التقدم... من هنا يمكن القول أن الدكتور حنفي يعمل على إعادة " بناء القديم كله ليكون قادرا على مواجهة تحديات العصر والانتقال من الإصلاح إلى النهضة، وذلك بالاعتماد على سلطة العقل واجتهاد المحدثين فالتراث ليس قيمة في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره. ويمكن توظيف التراث ليكون نظرية للعمل وموجها للسلوك، وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل، إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض وهما حجرا العثرة اللتان تتحطم عليهما كل جهود البلاد النامية في التطور والتنمية ... فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها، والإصلاح سابق على النهضة وشرط لها، والقفز إلى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم دون مضمونه وشرطه"[1].

إن هذه التوطئة هي ما تبرر اختيار نعتنا لهموم العقل والسياسة والواقع في فكر حسن حنفي بما دعوناه في العنوان "الفلسفة بالفعل" فالفلسفة عند حنفي لا تكف عن النظر والتأمل والنقد عبر عملية ذهاب وإياب وتحول وانتقال من وإلى العقل النظري والعقل العملي بتعبير كانط.

(1)."الدين والتراث والثورة في فكر حسن حنفي" تقديم وحوار: قيس خزعل جواد، في مجلة "الوحدة"، تصدر بباريس عن المجلس القومي للثقافة العربية، عدد ٠٦، مارس ١٩٨٥، ص ١٢٧.

واسمحوا لي في هذه الورقة الموجزة والمتواضعة أن ألتفت، قدر الإمكان ومن دون ادعاء بالإحاطة والإلمام الكامل، إلى الجانب العملي والمتمثل في الموقف من الواقع والعقل في فكر حنفي، ولعل ما يبرر حديثنا مرة أخرى، هو ما نمر به من شروط تاريخية وسياسية أقل ما يقال عنها أنها صعبة ومعقدة، وهي لا شك تدفعنا أكثر من أي وقت مضى إلى إعادة النظر في الكثير من المسلّمات والقناعات التي ركن إليها الفكر العربي المعاصر في شكل استئناسات وارتخاءات فكرية وايديولوجية، بل وإعادة النظر حتى في الكثير من الخيارات المنهجية والنظرية التي ما فتئ اعتمادها يكرس شرخا وهوة رهيبة بين واقع مهزوم يزداد تمزقا واستسلاما وخطابات تجتر عزلتها قابعة في أبراج طينية آيلة للسقوط في أية لحظة.

١. عن الواقع

إن عقدين من الزمن مرا على غزو بيروت وبعد أكثر من عشرين عاما كانت بغداد عاصمة المسلمين على الموعد مع غزو آخر، وبين الغزوين تصدعت الكثير من الأبراج الفكرية الايديولوجية، إلاّ أن الأسس والتوجهات النظرية والفكرية في فكر حسن حنفي أبانت عن قيمتها ومصداقيتها، من خلالها اشتغالها وانشغالها بالعمل معا على جبهتين في نفس الوقت جبهة العقل النظري وجبهة العقل العملي.

بعد غزو بيروت بشهور عبر الدكتور حسن حنفي عن الواقع العربي بعبارات واقعية ولكنها مشحونة بأبعاد ثقافية وحتى مفاهيمية في غاية الاستفزاز.

عبر عن ذلك قائلا: " لو أردت أن أعبر ليس فقط عن همي أنا، بل عن هموم المثقفين العرب، واسمح بالحديث باسمهم، لقلت إننا نعاصر ظاهرة فريدة في تاريخ المثقف العربي، هذه الظاهرة هي ظاهرة الاحباطات المستمرة، وكأننا نقع بمجرد أن نتعلم السير، لم يحاول أحد حتى الآن أن يفكر: لماذا حاولنا ولكن هذه المحاولة تنتهي باستمرار إلى فشل أقرب مما نتوقع، حتى أننا نبذر ولا يأتي حصاد؟ "(١).

ويتابع الدكتور حنفي معلقا على ما حدث في بيروت قائلا: "ما حدث في بيروت، هو في حقيقة الأمر ما حدث بعد الإتفاق وفرض السلام على مصر وإخراجها، ثم فرض السلام على بيروت (وسوريا قادمة وعصر الهيمنة الاسرائيلية قادم) هذه هي الصورة التي نستعد كلنا من أجلها الآن (...) فما العمل؟ ما هي الخريطة الحالية لنا نحن المثقفين الآن، ما هو دورنا؟ ما هي إمكانيات التحرك بالنسبة لنا؟ ما هو رصيدنا كما وكيفا ؟ ..."(٢).

---

(١)."من بيروت إلى النهضة: أسئلة واختيار"، حوار مع حسن حنفي، أنجزه محمد وقيدي، عبد الصمد بلكبير، ومحمد بنيس، في مجلة "الثقافة الجديدة" المغربية، عدد ٢٩، سنة ١٩٨٣، ص ٨ و ٩.

(2).المرجع نفسه والموقع نفسه.

مثل هذا الكلام كتب منذ أكثر من ٢٠ عاما، وتحقق منه جزء كبير، بل تحقق ما لم يكن في الحسبان أبدا، وهو أن الغرب بكل ثقله وحمولته جاء محتلا وغازيا في زمن اعتقد الجميع فيه أن زمن الاحتلال والغزو المباشر قد ولى من دون رجعة.

إن السؤال النظري لا يفارق هم السياسة والواقع عند حنفي ففي خضم الإندفاع والتحدي والانكسار، يطرح حنفي السؤال الفلسفي بقوة ووضوح متسائلا: " لكن التحدي الأعظم هو هل نحن قادرون على التنظير المباشر للواقع؟ أي على الحصول على أكبر أداة من أدوات التحليل لإيجاد نظرية مباشرة عن الواقع، أي لإنشاء تراث. يعني أن المرحلة التالية ليست فقط أخذ موقف من التراث الغربي أو من التراث القديم بل إنشاء تراث كما أنشأ القدماء تراثا"[1].

٢. عن العقل والواقع معًا

يكتسي موقف حسن حنفي من علاقة الفكر بالواقع طابعا يكاد يكون فريدا، فهو كلما أقبل على انجاز جزء جديد من مشروعه العلمي والفكري المتواصل والمتجدد، إلا وارتبط فيه مفهوم الواقع بمفهوم العقل ارتباطا قويا، فكانت السياسة هي الوجه الآخر للفكر ورسالته، وهو في ذلك لا يريد أن يحيد، في واقع الأمر، عن تقليد ومن صميم الفكر والنظر المرتبطين دوما بفعلي العقل والتفلسف، وهو أمر، في نظرنا، يكاد يلتصق التصاقا ببداهة الجهد الفكري

(1).المرجع نفسه، ص ١٥.

والجهد العملي الواقعي في ارتباطهما معا. ذلك أننا لو "ألقينا نظرة فاحصة على الجهد الفلسفي في صميمه، لألفينا أن الفلسفة تحاول دائما أن تقيم ضربا من التوازن بين نوعين مختلفين من المعرفة، معرفة ترمي إلى تغيير وجودنا، ومعرفة أخرى ترمي إلى زيادة قدرتنا وتوسيع رقعة سيطرتنا على الأشياء"(١).

ولكن حتى في هذا التزاوج والإلتصاق والترابط، فإن الواقع هو المحدد والحاسم في نهاية المطاف، ذلك أن "معرفتنا بغايتنا الشخصية ومصيرنا البشري هي الكفيلة وحدها بأن تخلع معنى أو دلالة على معرفتنا بوسائلنا في الفعل من جهة، وإدراكنا لدورنا الحيوي في السيطرة على الطبيعة من جهة أخرى"(٢).

وفي هذا المعنى يذهب حسن حنفي بعيدا في إظهار وتأكيد "رسالة الفكر" وهي رسالة تحيل على الواقع وتحاول دوما الكشف عنه. ومن أجل ذلك يضعنا حنفي أمام صياغة نظرية وفلسفية لمهام الفكر ومعانيه مزاوجا بذلك بين الموقف العقلي والموقف العملي، عبر إيمان عميق بالعقل واستشهاد غير محدود بالواقع واكراهاته. ويعبر عن ذلك بقوله: "ليس الفكر كلمة تقال بل هو شهادة على العصر، وتعني الشهادة كلمة الحق التي تفصل بينه وبين الباطل، وهي حكم على واقع وكشف لحقيقته، والمفكر هو هذا الشاهد، والشاهد هو الشهيد، فليست الشهادة فقط، إظهارا للواقع على أنه حقيقة، بل هي أيضا فعل شعوري، يعبر عن وجود المفكر. فوجود المفكر في حد ذاته في العصر شهادة،

(1). زكريا إبراهيم: "مشكلة الفلسفة"، مكتبة مصر، بدون تاريخ، ص ٥٩.

(2). المرجع نفسه والموضع نفسه.

والمفكرون شهداء الحق أي هم الذين يشهدون على عصرهم، وهم الذين قد يلقون الشهادة أي الاستشهاد جزاء على شهادتهم، والمفكرون في العصر هم شهداء لذلك كان سقراط شاهدا على عصره وشهيدا له وكان ابن حنبل في محنته شاهدا على عصره وشهيدا له وكان جيور دانو برونو الذي حرق علنا بأمر من محاكم التفتيش لإيمانه بالعقل والعلم الجديد شاهدا على عصره وشهيدا له"[1].

قد يكون لمثل هذا الكلام تطابقات هاهنا وهناك وقد يكون لمعانيه ودلالاته بصمات عميقة وبعيدة في سجلات الكتابة الفلسفية منذ سقراط إلى اليوم. ولكن صياغة بهذا المعنى إذا ما بحثنا عنها في ما نسميه الفكر العربي المعاصر، أو حتى ما يفضل البعض دعوته "فلسفة عربية معاصرة"، صياغة بهذا المعنى لا يمكن بلورتها وتقنينها سوى ضمن إعداد وتأصيل فكري، هو في نفس حالة حسن حنفي مشروع فكري عقلاني يحمل في ثناياه هموما سياسية ونهضوية تحيل بقوة على الواقع والتاريخ معا.

ومن المثير جدا أن إكراهات الواقع وكبوات التاريخ وحتى انتصاراته هي التي تمد إشكاليات الفكر والعقل المشروعية المنطقية والمنهجية في المشروع الفكري لدى حسن حنفي، فهو يعبر عن ذلك بنوع آخر من المزاوجة، هي أكثر تجريدا هذه المرة قائلا: "فالعقل لا يكون مطلقا في أزمة، وما نتصوره على أنه أزمة له قد يكون هو انتصاره بعد كفاح طويل. فقد بدأ الشعور الأوربي بواقعة

(1). حسن حنفي: "قضايا معاصرة I في فكرنا المعاصر"، دار التنوير، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ١١.

الكوجيتو على ما يصف هوسرل "في أزمة العلوم الأوربية" باسم العقل ثم تطور الشعور الأوربي من خلال الاتجاه العقلي عامة والمثالية الترنسندنتالية خاصة بكفاح العقل. وظهرت الفينومينولوجيا في النهاية كي تقيم العقل على أساس من التجربة الحية، وهي التي يأخذها البعض على أنها بديل للعقل، معلنة انتصار العقل، وقد يكون ما اصطلح على تسميته "باللامعقول" هو الواجهة الأخرى للعقل. فإذا كانت وظيفة العقل هي كشف الواقع، وإذا اتضح في هذا الواقع ما يند عن القانون العقلي الثابت ويخرج عن التصور فإننا نظن أن هناك أزمة للعقل لأننا قد حددنا من قبل وظيفة معينة للعقل لا يحيد عنها، مثل تعقيل الواقع، أو تحويله إلى كم رياضي، أو السيطرة عليه من أجل التنبؤ لمساره، فإذا لم يؤديها تحدثنا عن أزمة العقل، ويكون القصور منا وليس من العقل، لأننا لم نستطع إقامة منهج متسق مع موضوعه، وتصورنا منهجا معينا ثم أردنا صب الواقع فيه، ولما استعصى الواقع علينا تحدثنا عن أزمة العقل"[1].

في هذا النص المطول ما يعبر بحق عن تلك المسئولية المزدوجة والبارزة بقوة في مشروع وفكر حسن حنفي، المسئولية بمعنى الانخراط والالتزام بمهام العقل وإكراهات الواقع والتاريخ، وهو التزام يشكل في نظرنا جانبا أساسيا في فكر حنفي، ولا بد من الإشارة في هذا المجال إلى أن مقاربة العقل العملي في فلسفة حنفي لم تفها الدراسة النقدية الجادة حقها رغم ذلك فإن مشروع حنفي لا زال يباشر المزاوجة بين مقتضيات النظر ومقتضيات الواقع في ثنائية جدلية لا

(1). حسن حنفي: "قضايا معاصرة II في الفكر الغربي المعاصر"، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٣٦.

تكل ولا تعيى في انتظار فك رموز وإكراهات وتناقضات الواقع العربي بهدف وضع مسألة النهضة العربية على طريق وسكة العقل والعقلانية.